توظيف الدرس البلاغي في فهم القرآن وتدبره[1]

Employing Rhetorical Studies in Comprehending and Contemplating the Qur'anic Discourse

سعاد عبد الشيخ عبدالله عبولان
طالبة دكتوراة، قسم الدراسات الإسلامية،كلية الآداب، جامعة حضرموت
المراسلة:amtalrhmnbdallh084@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/6/5 تاريخ القبول:2025/6/30

الملخص:

يستهدف هذا البحث إبراز أهمية توظيف الدرس البلاغي في فهم القرآن الكريم وتدبره، انطلاقًا من أن البلاغة القرآنية تمثل أحد أبرز وجوه الإعجاز التي يتجلى من خلالها التحدي البياني للقرآن، ووسيلة مركزية لفهم دلالاته وأسراره. وقد اعتمدت الدراسة المنهج التحليلي الاستقرائي، للكشف عن أثر الظواهر البلاغية في توجيه المعنى القرآني، وبيان علاقتها بالتفسير البياني والتدبري.

تناول البحث عددًا من المحاور، منها: بلاغة القرآن الكريم بوصفها أداة لفهم المعاني واستكشاف المقاصد، ودور الصور البيانية في تقريب المجرد إلى المحسوس، إلى جانب بيان الفروق الدلالية بين الألفاظ من خلال السياق البلاغي، وتأثيرها في تكوين دلالة الآية ومقصدها. كما أبرز البحث العلاقة الوثيقة بين علم البلاغة وعلوم التفسير، وقدم نماذج تطبيقية من النصوص القرآنية تبرز هذا التداخل.

وقد توصل البحث إلى أن الدرس البلاغي ليس فرعًا تجميليًا في علوم القرآن، بل هو أساس راسخ لفهم النص وتدبره، ووسيلة منهجية لفهم المقاصد والغايات، مما يؤكد الحاجة إلى إدماج البلاغة في مناهج التفسير وتدريس علوم القرآن. ويقترح البحث تعزيز الدراسات التطبيقية في البلاغة القرآنية، وربطها بسياق التدبر، خدمة للنص القرآني، وتعظيمًا لهداياته.

الكلمات المفتاحية:

- البلاغة
- التدبر
- التفسير البياني
- الصور الفنية

ABSTRACT:

This study aims to highlight the significance of employing rhetorical analysis in understanding and reflecting upon the Qur'an. Qur'anic eloquence represents one of the most prominent aspects of its miraculous nature in which the challenge of the Quranic rhetoric lucidly unravels and serves as a central means for uncovering its meanings and subtleties. The research adopts an analytical and inductive

[1] مستل من رسالة دكتوراه بعنوان: التصوير الفني وأثره في التفسير (دراسة تأصيلية تطبيقية) مقدمة لقسم الدراسات الإسلامية بجامعة حضرموت.

Key Words:

- **Rhetoric**
- **Contemplation**
- **Rhetorical Exegesis**
- **Figurative Imagery in the Qur'an**

approach to reveal the impact of rhetorical features on guiding Qur'anic meanings and to explore their relation to rhetoric and contemplative interpretation.
The study discusses several key themes, including: the Qur'an's rhetorical supremacy as a tool for grasping meanings and intentions, the role of figurative imagery in bringing abstract meanings closer to perception, and the semantic distinctions among words through rhetorical context and their influence on shaping the verse's meaning and intents. The research also manifested the strong correlation between rhetoric and the sciences of Qur'anic interpretation, presenting applied examples from Qur'anic texts that showcase this interaction.
The study concluded that rhetorical analysis is not a secondary or decorative aspect of Qur'anic sciences but a foundational method for understanding and contemplating the Qur'an as well as methodological means for understanding intents and aims. This ascertains the necessity for integrating rhetorical approaches into tafsīr methodologies and Qur'anic education and recommends enhancing applied rhetorical studies and linking them to the contemplative context so as to serve the Qur'anic text and elevate its guidance.

مقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فيُعدُّ القرآن الكريم المصدر الأول الذي يُستمد منه الهداية والتوجيه في حياة المسلمين، ويظلُّ أعمق النصوص تأثيرًا وأبقى في مسيرته الإنسانية، وقد أنزل الله تعالى القرآن بلغة عربية فصيحة، تتسم بالبلاغة العالية والأسلوب الأدبي الرصين الذي يعكس عظمته وجلاله. ومنذ نزوله سعى العلماء إلى فهم هذه البلاغة وتفسير معانيه الدقيقة من خلال دراسات لغوية وبلاغية عميقة.

فحين يتلقّى القلب خطاب السماء، وتنساب على الروح آياتٌ من كلام الله، يُولد في النفس شوقٌ لا يُطفئه إلا التدبر، وتأملٌ لا يروي غلّته إلا البيان الذي يحاكي الفطرة، ويخاطب العقل، ويأسر الوجدان، يحمل من لطائف الأسلوب، ودقائق التركيب، وبدائع التصوير، ما يجعله فوق حدود البيان البشري، فكان لا بد لمن أراد فهمه حقًّا، وتدبره صدقًا، أن يمتلك المفاتيح التي تفتح مغاليق دلالاته، وتكشف عن كنوز معانيه. وليس من مفتاحٍ أعظم في ذلك من الدرس البلاغي؛ بما يحويه من علم البيان، والمعاني، والبديع، التي تكشف عن وجه الإعجاز، وتضيء عتمة الغفلة عن مواطن الجمال.

ومن هنا كانت هذه الدراسة محاولةً لاستجلاء أثر الدرس البلاغي في فهم القرآن وتدبره، من خلال تتبع مساراته في بيان الإعجاز، وتفكيك المفردة، وتصوير المعنى، وإشعال أثره النفسي والوجداني في قلب المتلقي.

مشكلة البحث وتساؤلاته وفرضياته:

تكمن مشكلة البحث في الأمور الآتية –التي أعقبتها بأسئلة البحث وفرضياته– :

1. القصور في فهم أبعاد البلاغة القرآنية: يعاني عدد من الدارسين والباحثين من قلة الوعي بأبعاد البلاغة القرآنية وأدواتها المتعددة التي تسهم في كشف المعاني العميقة للنصوص، فيؤدي إلى تقليص الفهم الشامل والمركب للآيات الكريمة.
2. التحديات في تفسير النصوص القرآنية البلاغية: تفتقر بعض المناهج التفسيرية إلى الربط الفعّال بين البلاغة القرآنية وتفسير النصوص، مما يُصعب على المفسرين استخراج الدلالات البلاغية الكامنة وراء الآيات. وتُعد هذه الفجوة من التحديات التي تواجه الباحثين في مجال التفسير البياني.
3. التغاضي عن الجوانب البيانية في التفسير التقليدي: يركز التفسير التقليدي في بعض الأحيان على الجوانب المعرفية والتاريخية للنصوص من غير الاستفادة الكافية من الأدوات البلاغية، مما قد يؤدي إلى إغفال بعض الدلالات القرآنية التي تكمن في استخدامات اللغة البلاغية.
4. افتقار الدراسات البلاغية إلى التطبيق العملي في تفسير الآيات: تشهد الدراسات البلاغية نقصًا في الدراسات التطبيقية التي تربط بين النظرية البلاغية وتفسير الآيات القرآنية بشكل عملي، مما يجعل من الصعب على الطلاب والباحثين توظيف هذه الأدوات في تفسير النصوص بصورة فعّالة.
5. الحاجة إلى دراسة أعمق لعلاقة البلاغة بالنحو والتركيب: لا توجد دراسات كافية تسلط الضوء على العلاقة المتكاملة بين البلاغة والنحو والتركيب في القرآن الكريم، مما يترك فجوة في فهم كيفية تأثير هذه العلاقة في تكوين المعنى الكلي للآيات.

ومن مظاهر هذه المشكلة أتت أسئلة البحث وفرضياته على الآتي:

1. كيف تسهم البلاغة القرآنية في تحسين الفهم التفسيري للآيات؟ وهل هناك علاقة مباشرة بين البلاغة ووضوح المعنى في التفسير؟
2. كيف يؤثر التفسير البياني في الكشف عن دلالات النصوص البلاغية؟ وكيف يمكن للباحثين والمفسرين الاستفادة من هذه العلاقة؟

3. هل هناك تكامل بين البلاغة والتدبر في تفسير النصوص القرآنية؟ وكيف يمكن للمفسر الاستفادة من هذا التكامل لفهم المعنى القرآني بشكل أفضل؟

4. ما أهمية الدراسة التطبيقية للبلاغة القرآنية في تحسين التفسير؟ وما مدى تأثير ذلك في تحسين دقة التفسير؟

أسباب اختيار الموضوع:

1. **القصور الملحوظ في توظيف البلاغة في المجال التفسيري والتدبري:**

رغم ما للبلاغة من دور جوهري في بيان إعجاز القرآن الكريم، لكن حضورها في كتب التدبر أو المناهج التعليمية المعاصرة لا يزال ضعيفًا أو غير ممنهج، مما استدعى بحثًا متخصصًا يُبرز هذا التوظيف ويوجهه.

2. **الحاجة إلى ربط الذوق البلاغي بالفهم القرآني:**

تعلُّم البلاغة غالبًا ما يقتصر على الجوانب النظرية المجردة، في حين يُهمل دورها التفاعلي في فهم النصوص القرآنية وتذوقها، لذلك جاء هذا البحث ليُعيد الاعتبار للبلاغة؛ بوصفها وسيلة لفهم أعمق وتدبر أرقى.

3. **تعزيز البعد التربوي والتأملي في تدبر القرآن:**

كثير من الدراسات تُعالج البلاغة من منظور لغوي أو نقدي، من غير الالتفات لأثرها في تشكيل الوعي الإيماني والوجداني، فجاء هذا البحث ليملأ هذا الفراغ، ويركز على الأثر التربوي للبلاغة في تدبر كتاب الله تعالى.

4. **ضعف الدراسات التطبيقية في ربط البلاغة بالنماذج القرآنية:**

ما زال هناك نقص واضح في الدراسات التي تُقدم أمثلة تحليلية تطبيقية توضح كيف تخدم الصور البلاغية (كالاستعارة، التشبيه، الكناية...) فهم المعاني القرآنية، فجاء هذا البحث ليسد هذا النقص عبر أمثلة مختارة وتحليل منهجي.

5. **الرغبة في الإسهام في تجديد منهج تعليم التفسير والتدبر:**

يسعى البحث إلى تقديم تصور منهجي معاصر لتعليم التفسير البلاغي بصورة مبسطة وفعّالة، تخاطب القارئ المعاصر، وتخدم المعلم والداعية والمفسر.

أهداف البحث:

1. بيان أهمية الدرس البلاغي في الكشف عن المعاني العميقة للنص القرآني، من خلال تحليل الظواهر البيانية التي تُسهم في تعميق الفهم وإثراء التذوق.

2. استكشاف أثر الصور الفنية البلاغية (كالاستعارة والتشبيه والكناية) في إبراز الجمال البياني القرآني، وبيان دورها في استدعاء التدبر والانفعال الوجداني عند القارئ.

3. إبراز العلاقة بين البلاغة والتفسير البياني للقرآن الكريم، وتسليط الضوء على كيفيات الإفادة من الدرس البلاغي في خدمة التفسير المعاصر.

4. تقديم نماذج تحليلية تطبيقية لنصوص قرآنية، توضّح كيف يُسهم التوظيف البلاغي في توجيه المعنى وفهم السياق القرآني في ضوء خصائصه البيانية.

5. الدعوة إلى إحياء التفسير البلاغي بوصفه مدخلاً لتفعيل التدبر الحقيقي للقرآن، وربطه بالواقع المعرفي والوجداني للقارئ المسلم.

أهمية الموضوع:

1. **إبراز دور البلاغة في التفسير القرآني:** يعرض البحث أهمية البلاغة القرآنية في فهم معاني الآيات القرآنية، ويفتح آفاقًا جديدة للباحثين والدارسين في كيفية تطبيق الأدوات البلاغية لفهم النصوص القرآنية بعمق أكبر، مما يسهم في تطوير علوم التفسير وتوسيع آفاقها.

2. **تعميق الوعي البلاغي لدى القراء والمفسرين:** إذ يعزز قدرة العلماء والطلاب على التفاعل مع النص القرآني بشكل أعمق من خلال أدوات البلاغة المتنوعة المتوافرة في آيات القرآن الكريم، مما يعينهم على فهم التنوع الدلالي والتأثير البياني للنصوص.

3. **استكشاف العلاقة بين البلاغة والتفسير البياني:** يُظهر البحث العلاقة الوثيقة بين البلاغة والتفسير البياني، ويعزز من الوعي بأهمية الدمج بين أساليب البلاغة والتفسير العميق؛ للوصول إلى معاني القرآن الكامنة، التي قد يغفل عنها البعض.

4. **فتح مجالات جديدة في الدراسات القرآنية:** وذلك من خلال تسليط الضوء على الدور المحوري للبلاغة في إبراز إعجاز القرآن، وتوضيح كيفية استفادة العلماء من الأدوات البلاغية في تفسير معاني القرآن.

5. **التحفيز على الدراسات البلاغية التطبيقية في القرآن الكريم:** يعزز البحث من أهمية إجراء دراسات تطبيقية في مجال البلاغة القرآنية، وذلك بهدف تحسين المناهج الدراسية في هذا المجال، ورفع مستوى التفسير القرآني لدى الدارسين.

منهج البحث:

يتبنى هذا البحث **المنهج التحليلي الاستقرائي**، حيث يبدأ بجمع مجموعة مختارة من الآيات القرآنية وتحليلها، ويقوم بدراسة الصور البلاغية فيها وفق أدوات الدرس البلاغي، من خلال التحليل التفصيلي لهذه النماذج، ويتم استقراء القواعد البلاغية والوظائف التي تؤديها في توضيح المعاني وتعميق فهم القرآن الكريم.

الدراسات السابقة:

1) **أثر البلاغة ذوقًا وقواعد على التفسير: فيصل بو طالبي، الجزائر، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية،2024م:**

تناولت هذه الدراسة العلاقة المتينة بين الذوق البلاغي والقواعد البلاغية من جهة، وبين فهم النص القرآني وتأويله من جهة أخرى. ركز الباحث على إبراز أهمية تكامل الذوق الشخصي للمفسر – المرتكز على الفطرة والملكة الأدبية – مع القواعد البلاغية المنضبطة في الكشف عن المعاني العميقة للقرآن الكريم. ثم عرض نماذج تطبيقية من كتب التفسير التي جسّدت هذا التكامل في التعامل مع البيان القرآني، مسلطًا الضوء على مدى حضور البعد البلاغي في التفاسير القديمة والمعاصرة.

الفرق بينها وبين هذه الدراسة:

تختلف هذه الدراسة عن البحث الحالي في أنها ركزت على الثنائية بين الذوق والقواعد البلاغية وأثرها في عملية التفسير عمومًا، في حين يسعى هذا البحث إلى تقديم رؤية شمولية لتوظيف الدرس البلاغي بجميع مكوناته (علم البيان، علم المعاني، علم البديع) في فهم القرآن الكريم وتدبره، مع التركيز على البُعد التدبري والتفاعلي، وليس مجرد التفسير العلمي أو الفني للنصوص.

2) **ملامح تجديد البلاغة في مدرسة التفسير البياني: د. يوسف ولد النبية، مجلة العلوم الإنسانية والحضارة، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط،2019م:**

تناولت هذه الدراسة الاتجاه التجديدي في البلاغة ضمن مدرسة التفسير البياني المعاصرة، من خلال الكشف عن التحولات المنهجية التي طرأت على البلاغة العربية، وتحولها من أداة زخرفية إلى وسيلة تحليلية للكشف عن عمق الدلالة القرآنية. ركز الباحث على أعلام المدرسة البيانية كأمين الخولي، وعائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، وفاضل السامرائي، موضحًا كيف أعادوا الاعتبار للدرس البلاغي من خلال تطبيقاته على النص القرآني في ضوء السياق والنظم والمقاصد.

الفرق بينها وبين هذه الدراسة:

في حين ركزت هذه الدراسة على البعد التاريخي والمنهجي لتجديد البلاغة لدى المدرسة البيانية، فإن البحث الحالي يتوجه نحو تفعيل الدرس البلاغي تربويًّا وتدبريًّا، ويبرز أثره العملي في فهم القرآن وتدبره لدى المتلقي، دون الاقتصار على الاتجاهات الأكاديمية أو المدارس التفسيرية، بل يربطه بتجربة قارئ القرآن المعاصر، ويقدم نماذج تطبيقية لذلك التوظيف.

3) العلاقة بين البلاغة والتفسير: عيسى إبراهيم جمعة، مجلة جامعة تكريت، 2018م:

تناولت هذه الدراسة العلاقة الجوهرية بين علم البلاغة والتفسير، إذ أبرزت أن البلاغة تمثل أداة تفسيرية مهمة لفهم معاني القرآن الكريم وتدبر آياته بشكل أعمق، وركزت على كيفية توظيف القواعد البلاغية والذوق البلاغي في كشف المعاني المخفية وتعزيز الفهم القرآني. كما أوضحت الدراسة دور البلاغة في تيسير الإحاطة بدلالات النص القرآني وإظهار جمالياته البيانية، ما يعين القارئ على التدبر والتأمل.

الفرق بينها وهذه الدراسة:

في حين ركزت هذه الدراسة على العلاقة العامة بين البلاغة والتفسير وأهميتهما المتبادلة، تميزت الدراسة الحالية بالتركيز المباشر على توظيف الدرس البلاغي كمنهج عملي في فهم القرآن الكريم وتدبره، مع تقديم آليات محددة للاستفادة من البلاغة في عملية التدبر القرآني، إضافة إلى تحليل أمثلة تطبيقية من النصوص القرآنية تعزز فهم الدرس البلاغي في السياق التفسيري، مما يضيف بعدًا عمليًا للموضوع.

خطة البحث:

يحتوي البحث على: المقدمة: وتضمنت مشكلة البحث، أسباب اختياره، أهميته، أهدافه، منهجه، والدراسات السابقة.

المبحث التمهيدي: ويحتوي على مطلبين:

المطلب الأول: أهمية الدرس البلاغي في فهم القرآن وتدبره.

المطلب الثاني: دور البلاغة في استجلاء معاني القرآن الكريم وتذوق إعجازه.

المبحث الأول: الأساليب البلاغية في القرآن وأثرها في تدبر المعنى، ويحتوي على مطلبين:

المطلب الأول: الإعجاز البياني وأثره في تدبر النص القرآني.

المطلب الثاني: التصوير الفني في القرآن ودوره في تقريب المعاني المجردة.

المبحث الثاني: دور البلاغة أداةً في الكشف عن الفروق السياقية وتحقيق الفهم العميق، ويحتوي على مطلبين:

المطلب الأول: أثر البلاغة في استجلاء الفروق السياقية بين المفردات.

المطلب الثاني: البلاغة أداة تفسيرية لفهم المعاني العميقة في النص القرآني.

المبحث الثالث: أثر التفاعل بين البلاغة والتدبر المنهجي في الفهم والتأمل القرآني، ويحتوي على مطلبين:

المطلب الأول: التأثير الوجداني للبلاغة القرآنية وأثره في تعميق التدبر.

المطلب الثاني: تكامل العلاقة بين البلاغة والتدبر المنهجي.

- **الخاتمة، وتتضمن النتائج والتوصيات**
- أهم النتائج التي توصل إليها البحث.
- التوصيات.
- قائمة المصادر والمراجع.

المبحث التمهيدي: ويحتوي على مطلبين:

المطلب الأول: أهمية الدرس البلاغي في فهم القرآن وتدبره:

إنَّ الدرس البلاغي أحد أهم الأدوات التي تُستخدم لفهم النص القرآني وتدبره، إذ يُمكّن من استكشاف طبقات المعنى التي تنطوي عليها الكلمات والجمل في القرآن الكريم، ويتمثل دوره في الكشف عن الأساليب البلاغية التي تعكس الجمال اللغوي والنحوي للنص القرآني، كالمجاز، والاستعارة، والتشبيه، والتكرار، والتركيب البلاغي، وغيرها من الوسائل البلاغية التي تسهم في إثراء الفهم القرآني؛ إذ إنَّ إدراك المعاني البلاغية يساعد في الوصول إلى أعمق تأويلات النصوص وفهم مقاصد الشريعة.

وأما توظيف الدرس البلاغي في تفسير القرآن الكريم وتدبره فليس مجرد عملية أكاديمية أو لغوية بحتة، بل هو أمر أساسي يساعد في استخلاص الحكمة من الآيات القرآنية وتطبيقها في الحياة اليومية، ففهم الأسلوب البلاغي يمكن أن يُعطي القارئ أو المتدبر معاني إضافية ترتبط بالواقع الإنساني، كالأبعاد النفسية، والتوجيهات الأخلاقية، والتوجيهات الدينية التي تساعد في بناء شخصيته وتطويره.

المطلب الثاني: دور البلاغة في استجلاء معاني القرآن الكريم وتذوق إعجازه:

يستهدف هذا البحث بيان كيفية الاستفادة من علم البلاغة في فهم النص القرآني على نحوٍ أعمق، واستجلاء معانيه بواسطة الأدوات البلاغية لتساعد في إدراك مراميه، واستخلاص دلالاته، وتذوق إعجازه، إذ يؤكد العلماء على أن تدبر القرآن لا يكتمل من دون فهم بلاغته؛ لأن القرآن الكريم نزل بلغة العرب في أرقى صورها، وهذا ما يجعل التعمق في بلاغته وسيلة أساسية لتدبر معانيه، واستنباط دلالاته، واستشعار إعجازه، يقول الدكتور عويض بن حمود العطوي: "وأما تدبر القرآن للمؤمنين فتبقى البلاغة وسيلة ناجعة لإظهار عظمة هذا الكتاب، والتنبيه على دقائق معانيه ودلالاته..." [1].

فكيف يسهم الدرس البلاغي في فهم القرآن، وما أثره في التدبر؟ وهل يمكن أن يحصل التدبر من دون الآلة والأدوات البلاغية؟

إن البلاغة بجمالياتها وأدواتها الفنية، تُعَدُّ من أهم العلوم التي تساعد على فهم القرآن الكريم وتدبره بعمق، مما يُعين المسلم على التفاعل الروحي والفكري مع النص القرآني، ويتجلى ذلك من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: الأساليب البلاغية في القرآن وأثرها في تدبر المعنى، ويحتوي على مطلبين:

المطلب الأول: الإعجاز البياني وأثره في تدبر النص القرآني:

يُعَدّ الإعجاز البياني من أوسع أبواب التحدي الذي واجه به القرآن العرب، فقد جاء بفصاحة وبلاغة لم يعهدها فصحاؤهم، وحوى من الشمول البياني ما يعجز عنه البيان البشري، ومن أوجه هذا الإعجاز ما أشار إليه الإمام الجصاص عند حديثه عن لطائف قوله تعالى: ﴿ **وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ** ﴾ البقرة: 179]، حيث قال: "فهذا وأشباهه مما يظهر به للمتأمل إبانة القرآن في جهة البلاغة والإعجاز من كلام البشر إذ ليس يوجد في كلام الفصحاء مَن جَمَعَ المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة مثل ما يوجد في كلام الله تعالى" [2].

والتحدي –هنا– يتجلّى في أسلوب الإيجاز، حيث تُكثَّف المعاني العظيمة في عبارات موجزة بليغة، تفوق في بلاغتها أقوال العرب أنفسهم، مثل تعبيرهم: "القتل أنفى للقتل"، ومع ذلك، جاء لفظ القرآن أرقى وأشد تأثيرًا، لأنه لم يقتصر على بيان الردع، بل أضاف بعدًا تشريعيًا وأخلاقيًا بذكر القصاص، ليؤكد العدل الإلهي، كما أبرز الغاية المنشودة منه بذكر الحياة، فكان الجمع بين العدل والرّحمة، والرّهبة والرّغبة، في تركيب بالغ الإحكام، مما يجعل القرآن في مرتبة لا يدانيها بيان [3].

المطلب الثاني: التصوير الفني في القرآن ودوره في تقريب المعاني المجردة:

إن من أبرز سمات التعبير القرآني –كما سبق– قدرته الفائقة على تقريب المفاهيم المجردة إلى الأذهان عبر التصوير الفني؛ إذ يأتي القرآن بالمحسوسات ليجسد المعاني العقلية، فيجعلها قابلة للإدراك والتفاعل الوجداني، ويعد هذا الأسلوب من أرقى أدوات البيان في النصوص المقدسة، إذ تتحول المعاني الذهنية إلى صور نابضة بالحياة، تترك أثرًا بالغًا في نفس المتلقي.

ومن أبدع تجليات هذا التصوير ما نجده في آيات القرآن التي تصور الأعمال والأخلاق المجردة بصور حسية مؤثرة، يقول الله تعالى في تصويره لحبوط الأعمال بسبب الشرك: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾[إبراهيم: 18]، فهنا يُجسد القرآن أعمال الكافرين بصورة رماد تذروه الرياح العاصفة، فيبرز زوالها وفناءها، بعد أن بدت لهم ذات قيمة وثبات، جاء في الظلال: "ومشهد الرماد تشتد به الريح في يوم عاصف مشهود معهود، يجسم به السياق معنى ضياع الأعمال سدى، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشيء منها ، ولا الانتفاع به أصلاً . يجسمه في هذا المشهد العاصف المتحرك، فيبلغ في تحريك المشاعر له ما لا يبلغه التعبير الذهني المجرد عن ضياع الأعمال وذهابها بدداً...وهكذا يلتقي المشهد المصور مع الحقيقة العميقة، وهو يؤدي المعنى في أسلوب مشوق موح مؤثر" [(4)].

فهذا التصوير يجعل الفكرة المجردة (ضياع العمل) ملموسة من خلال مشهد حسي مألوف، يسهل استيعابه والتأثر به.

وبهذا وغيره يتجلى التصوير الفني في القرآن كأداة بيانية راقية، تحوّل المعاني النظرية إلى مشاهد محسوسة، وتعزز تأثيرها في وجدان المتلقي، وتجعله يتفاعل معها على مستوى أعمق من الفهم والتدبر.

المبحث الثاني: دور البلاغة أداةً في الكشف عن الفروق السياقية وتحقيق الفهم العميق، ويحتوي على مطلبين:

المطلب الأول: أثر البلاغة في استجلاء الفروق السياقية بين المفردات

تمثّل البلاغة مفتاحًا لفهم الدقائق التعبيرية في القرآن الكريم؛ إذ تكشف عن الفروق اللغوية بين الألفاظ التي قد تبدو مترادفة في ظاهرها، لكنها تؤدي معاني متمايزة تتناسب مع السياق الذي وردت فيه، ومن أوجه ذلك، دقة اختيار المفردات القرآنية بحيث لا يمكن أن تحل كلمة محل أخرى دون أن يختل المعنى أو يضعف أثره.

ومن الأمثلة الدالة على ذلك، ورود وصف "هامدة" و"خاشعة" للأرض في سياقين مختلفين، حيث قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ ﴾ [الحج: 5]، وقال في موضع آخر: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾[فصلت: 39]، ففي الآية الأولى جاء الوصف بـ ﴿ هَامِدَةً ﴾ ؛ لأن السياق يتحدث عن البعث والإحياء وإخراج النبات، وهو ما يناسب تصوير الأرض ميتة لا أثر للحياة فيها، ثم تُبعث بالحياة عند نزول الماء. أمّا في الآية الثانية، فجاء الوصف بـ ﴿ خَٰشِعَةً ﴾ ؛ لأن السياق يحمل جوًا من التعبد والخشوع والسجود، فتُصوَّر الأرض وكأنها خاضعة مستكينة، فإذا نزل عليها الماء اهتزت وربت، في إشارة إلى الخضوع لأمر الله، مثلما تخشع القلوب لذكره [5].

وبهذا وغيره من الأمثلة –وهي كثيرة– تُبرز البلاغة الفروق الدقيقة بين الألفاظ، مما يعمّق فهم القارئ للنص القرآني، ويكشف عن مدى الدقة والإحكام في اختيار الكلمات بما يتناسب مع مقاصد الآيات وسياقاتها.

المطلب الثاني: البلاغة أداة تفسيرية لفهم المعاني العميقة في النص القرآني:

يُعدُّ علم البلاغة أداة أساسية للمفسرين في تحليل النصوص القرآنية، ليُمكّنهم من الوصول إلى معانٍ لم تتبادر للذهن بشكل مباشر لولا استعمالها البلاغي في القرآن، وهذا ما فطن إليه أسلافنا في استجلاء معاني القرآن –المشكَلَة – باستخدام الأدوات البلاغية، وأول ما نذكره في هذا المقام لما سأل رجل أبا عبيدة معمر بن المثنى (ت 209هـ) عن قوله تعالى: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الصافات: 65]، فقال الرجل: "إنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عُرف مثله وهذا لم يُعرف"، فقال أبو عبيدة: "إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

أيقتلني والمشرفي مضاعجي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ولكنه لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به" فاستحسن السائل ذلك، واعتقدتُ – المتكلم أبو عبيدة– من ذلك اليوم أن أصنع كتابًا في القرآن لمثل هذا وأشباهه ولما يحتاج إليه من علمه، فلما رجعتُ إلى البصرة عملتُ كتابي الذي سميته المجاز [6].

ومعلوم أن أبا عبيدة يستخدم لفظة "المجاز" للتعبير عن الطرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته وأساليبه البلاغية المتنوعة، التي منها هنا: الانتقال في التشبيه من وجه الشبه المعروف إلى وجه آخر غير معروف أو مألوف، والتشبيه من أقوى أدوات الدرس البلاغي.

المبحث الثالث: أثر التفاعل بين البلاغة والتدبر المنهجي في الفهم والتأمل القرآني، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التأثير الوجداني للبلاغة القرآنية وأثره في تعميق التدبر:

الأساليب البلاغية تُحدث تأثيرًا عميقًا في نفس القارئ، فتجعله يتفاعل مع النص القرآني بوجدانه وعقله، مما يقود إلى زيادة الخشوع والتدبر، وهذه نافذة الفهم لكتاب الله تعالى، وفي هذا السياق أشار الخطابي إلى بُعدٍ مهم من أبعاد إعجاز القرآن فذكر أنّ: "في إعجاز القرآن وجهًا آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه" [7]، وهذا يشير إلى أن القرآن الكريم يمتلك القدرة على التأثير العميق في نفس المتلقي بطرق فريدة، بحيث يتفاعل مع مشاعره وعقله في آن واحد.

ومن شدة تأثيره النفسي إسلام بعض الكفار تأثرًا به –لاسيما البلغاء منهم– اندهاشًا منهم ببلاغته وأسلوبه، والمواقف في السِيَر كثيرة، نذكر منها على سبيل التمثيل قصة الشاعر اللبيب الطفيل بن عمرو الدوسي قبل إسلامه –رضي الله عنه– إذ قال عن نفسه: "واثكل أمي والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ الحسن من القبيح فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول فإن كان الذي يأتي به حسنًا قبلته وإن كان قبيحًا تركته، قال: فمكثت حتى انصرف رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إلى بيته فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت: يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا للذي قالوا فو الله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك فسمعته قولًا حسنًا فاعرض عليّ أمرك، قال: فعرض عليّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الإسلام، وتلا عليّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمرًا أعدل منه، قال: فأسلمت، وشهدت شهادة الحق" [8].

هذه القصة تمثل نموذجًا حيًّا على التأثير البالغ للقرآن في تغيير النفوس وتحويلها، حتى إن هذا التأثير قد دفع الطفيل –رضي الله عنه– إلى اعتناق الإسلام بعد أن سمع آيات القرآن الكريم، مما يعكس قوة الأسلوب القرآني في التأثير على القلب والعقل.

المطلب الثاني: تكامل العلاقة بين البلاغة والتدبر المنهجي:

إن ما سبق عرضه ليس إلا نماذج من توظيفات الدرس البلاغي في فهم القرآن وتدبره، استلهمتها مما قرأت، وهي لا تمثل حصرًا شاملًا، فقد يفتح الله على الباحثين آفاقاً أوسع وأعمق مما ذكرت.

ولكن يبرز هنا تساؤل مهم: هل يتوقف التدبر والفهم الحقيقي للقرآن على الإلمام بالأدوات والأساليب البلاغية؟

والجواب: إن التدبر ممكن في صورته العامة، فقد يتأمل الإنسان معاني القرآن بفطرته، لكن يبقى ذلك تدبرًا عفويًا وسطحيًا، لا يغوص في أعماق البيان القرآني ولا يكشف أسراره، أما التدبر المنهجي العميق، الذي يتجاوز ظاهر الألفاظ إلى ما وراءها من دلالات وإيحاءات، فلا سبيل إليه إلا بامتلاك الأدوات البلاغية التي تعين على تفكيك البناء اللغوي، وتكشف عن وجوه الإعجاز، وتضيء مسالك الفهم الراسخ المتين، جاء في المنهج البلاغي: "إن التدبر يمكن تقسيمه إلى تدبر عفويّ، وتدبر منهجيّ، فأما الأول وهو العفوي: فهو ما يجري على ألسنة الناس عوامّهم وخواصّهم، من ذكر معانٍ لطيفة ودلالات جميلة، دون الاعتماد على منهج محدد وآلية معينة، وهذا النوع يقبل منه ما كان له دليل لغوي في النص، أما غيره فلا. وأما التدبر المنهجيّ فهو القائم على أدوات محددة مدعومة بالدليل من خلال النص. ولا شك أن المعاني اللطيفة والدقيقة التي تستنبط بأدوات البلاغة تختلف عن الاستنباطات التي تعرض للقارئ، ففرق بين تدبر منهجيّ مبني على استخدام أدوات وله ضوابط، وما يَعِنُّ للذهن حسب الحال والسياق" [9].

ويؤكد شفيع السيد في طرحه على الترابط العميق بين البلاغة والنص القرآني، موضحًا أن فهم القرآن الكريم وإدراك مقاصده كان له أثر كبير في تطور الظواهر الأسلوبية التي استقرت عليها البلاغة العربية في مراحلها المتأخرة. ويكشف هذا الطرح عن علاقة التأثير والتأثر بين الجانبين، إذ لم تكن البلاغة مجرد أداة لفهم القرآن فحسب، بل كان للقرآن أيضًا دور محوري في بلورة أسس البلاغة وتطويرها، يقول شفيع السيد: "وإنما السعي إلى إثبات الفكرة القائلة بأن محاولة فهم النص القرآني فهمًا صحيحًا وإدراك مراميه ودفع الشبهات المثارة من حوله كانت سبيلًا إلى التوصل إلى كثير من الظواهر الأسلوبية التي عرفتها البلاغة العربية، واستقرت عليها في مرحلتها الأخيرة خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، ثم من بعد ذلك إلى الوقت الحاضر" [10].

لذا فإن العلاقة بينهما علاقة تكاملية؛ فالبلاغة خَدَمَت القرآن، والقرآن خَدَمَ البلاغة!

وبهذا يتبيَّن أن توظيف الدرس البلاغي في فهم القرآن وتدبره ليس مجرد ترفٍ علمي، بل ضرورة منهجية تُعين على إدراك إعجازه، واستنباط هداياته، فإن من الأهمية بمكان تعزيز هذا التوجه في الدراسات القرآنية، وربط البلاغة بالقرآن ربطًا وظيفيًا حيًّا، مع ضرورة تكثيف الجهود البحثية في إبراز أثر الدرس البلاغي في كشف دلالات النص القرآني، وجعل البلاغة وسيلة تدبرٍ، لا مجرد علم نظري جامد.

الخاتمة: وقد اشتملت على أهم النتائج والتوصيات.

أولاً: نتائج البحث:

أسفر البحث عن جملة من النتائج المهمّة، كان من أبرزها:

1. **تكامل البلاغة مع علوم التفسير**: أظهر البحث أن الدرس البلاغي لا يُعد ترفًا علميًا، بل يُسهم في إضاءة كثير من معاني النص القرآني، ويُعزز إدراك المتلقي لأبعاد النص التعبيرية والجمالية.
2. **أثر البلاغة في تحقيق التدبر**: تبين أن الوقوف على الأساليب البلاغية في القرآن يسهم في استثارة الفكر، وتحريك القلب، وهما أساسان في عملية التدبر، وهو ما يميّز التدبر عن الفهم السطحي للنص.
3. **ضعف التوظيف العملي للبلاغة في التعليم القرآني**: كشفت الدراسة أن هناك قصورًا في تضمين المهارات البلاغية ضمن مناهج تعليم القرآن الكريم، لا سيما في المستويات التعليمية العامة، مما يحد من فاعلية التدبر القرآني في الواقع التربوي.
4. **قيمة البلاغة في بناء المنهج التأويلي**: تبين أن البلاغة تُشكل أداة مركزية في بناء منهج تفسيري قائم على الانسجام النصي والدقة البيانية، بعيدًا عن التعسف أو الإسقاط.

ثانيًا: توصيات البحث:

بناء على النتائج المتوصّل إليها، يوصي البحث بما يأتي:

1. ضرورة دمج الدرس البلاغي في المناهج التفسيرية، وخاصة في المعاهد والكليات الشرعية، على أن يتم ذلك بطريقة تطبيقية تُبرز الأثر التدبري للبلاغة.
2. إعداد مواد تدريبية ودورات تأهيلية للمعلمين والدعاة عن توظيف البلاغة في شرح وتفسير الآيات، لتفعيل هذا الجانب في الخطاب الدعوي والتربوي.
3. تشجيع الباحثين على بناء دراسات تطبيقية في البلاغة القرآنية تربط بين القواعد البلاغية والنصوص التفسيرية، وتُبرز الأثر الروحي والمعرفي لذلك التوظيف.
4. إجراء مزيد من الدراسات المقارنة بين التفسير القائم على المنهج البلاغي والتفسير القائم على مناهج أخرى، لإبراز الفروق في الأثر والفهم والتذوق.

الهوامش:

1) المنهج البلاغي وأثره في تدبر القرآن، 14.

2) أحكام القرآن، 197/1.

3) ينظر: الصناعتين، أبو هلال العسكري، 54.

4) سيد قطب، 396/4.

5) ينظر: الظلال، سيد قطب، 298/6

6) ينظر: تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، 255/13.

7) بيان إعجاز القرآن،70.

8) السيرة النبوية لابن هشام، 226/2-227.

9) المنهج البلاغي وأثره في تدبر القرآن: 16.

10) البحث البلاغي عند العرب -تأصيل وتقييم-، 16.

المصادر والمراجع:

1. **أحكام القرآن**: الجصاص، المحقق: عبد السلام محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1415 هـ/1994 م.
2. **البحث البلاغي عند العرب –تأصيل وتقييم–**: شفيع السيد، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، الطبع والنشر: دار الفكر العربي.
3. **بيان إعجاز القرآن**: الخطابي، ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، الناشر: دار المعارف بمصر، الطبعة: الثالثة، 1976م.
4. **تاريخ بغداد**: للخطيب البغدادي، المحقق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلميّة، الطبعة: 1، تاريخ النشر: 1417 هـ.
5. **السيرة النبوية**: لابن هشام. تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: دار الجيل، سنة النشر: 1411هـ، مكان النشر: بيروت.
6. **الصناعتين**: أبو هلال العسكري، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: 1419 هـ.
7. **في ظلال القرآن**، سيد قطب، الناشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة، الطبعة: السابعة عشر – 1412 هـ.
8. **المنهج البلاغي وأثره في تدبر القرآن**: عويض بن حمود العطوي، أستاذ البلاغة المشارك، قسم اللغة العربية، كلية التربية والآداب، جامعة تبوك.